20100414.0003.R

السفير
www.assafir.com
الصفحة الأولى
تاريخ العدد ٢٠١٠/٠٤/١٤ العدد ١١٥٦٥

١٣ نيسان:
واجب الذاكرة وضرورة النسيان

فواز طرابلسي

لم يشذ الاحتفال بالذكرى الـ٣٥ على انطلاق الحرب عن المعتاد هذه السنة. وضع تحت عنوان العلاقة بين الذكرى والذاكرة. ووضعت الذاكرة في مواجهة النسيان. جمعية تحذر من غرق ضحايا الحرب في بحر من النسيان تقيم معرضاً تعرض فيه لمئتي ألف خانة على عدد قتلى الحرب. و«تنذكر وما تنعاد» لا يزال شعار المناسبة الأبرز. ترافقه دعوات نابذة للعنف كما في ملصق لصورة علبة ثقاب يحذرك «لا تلعب بالنار». ومع ذلك، تتباين الحاجة إلى الذاكرة. طرف سياسي يدعوك لندوة تبحث في كيفية الخروج من الحرب الأهلية. وآخر يعلمك أن الحرب «صارت ورانا».

وعلى اعتبار «أنها» صارت وراءنا، تتنافس جمعيتان على رفع نصب تذكاري لها: واحد في قلب ساحة الشهداء على مساحة عشرات الأمتار من «نصب الشهداء» الآخرين. وآخر عند معبر المتحف. من جهتهم، يكرر أهالي المخطوفين والمفقودين معارضتهم للنصبين على اعتبار أن النصب يأتي لاختتام قضية فالحرب لم تنته وهي لن تنتهي إلا عند البت بأمور المخطوفين والمفقودين ومساءلة المجرمين.

تكرر مشهد السنة الماضية أيضاً في الدعوة إلى وقوف رجال الدين الـ١٨ على درج مبنى المتحف الوطني، يتلون دعاء يستنجد بالعلي القدير ليلهمنا «أن نحل السلام بيننا أو على لبنان السلام».

الحدث الجديد الواعد هو الافتتاح الرسمي لأعمال ترميم «بناية بركات» بشراكة بين بلديتي بيروت وباريس، بعد أن جرى تعميدها «بيت بيروت». والأمل أن يرقى المسؤولون عنها إلى مستوى أن يكون «البيت» خزانة لذاكرة بيروت ومتحفاً لتاريخها الحديث وملتقى ثقافياً ومرصداً مدينياً لإنقاذ ما تبقى من إرث مديني لم يغتله المقاولون بعد.

أما جديد الجديد، من حيث الهزل، فهو إعادة تمثيل الحرب على شاكلة مباراة كرة قدم حبية يتبارى فيها عدد من نواب ووزراء يمثلون قادة الميليشيات وزعماء الحرب أو مموليهم في ظل شعار «كلنا فريق وحد». ولتأكيد وحدة «الفريق» ومتانة السلم الأهلي واستتباب الأمن في ملاعب كرة القدم والروح الرياضية السائدة، في ظل حكومة المشاركة، تقرر إجراء المباراة من دون جمهور!

أمران أفلتا من الاحتفالات كما العادة. حقيقة أن للحرب أسباباً، وأن آثارها الأكثر فتكاً هي ما تفعله بالأحياء. سعى لتذكيرنا بالاثنين معاً روائي علماني من أدباء المهجر أصدر واحدة من أصدق وأمتع وأذكى وأعنف روايات الحرب. فهل من سميع؟

كل هذا يستوجب السؤال: هل التذكّر بذاته مولّد للمعرفة؟ وهل التذكّر وحده يمنع تكرار الحرب؟ وماذا نتذكر؟ وما موقع النسيان من كل هذا؟

على عكس ما هو شائع، ثمة علاقة لا فكاك منها بين ذاكرة ونسيان. يتصل واحدهما بالآخر اتصال الحياة بالموت. والحقيقة التي لا بد من التذكير بها أنه لا يمكن أن نتذكر كل شيء ولا أن ننسى كل شيء. أضف إلى ذلك أن التركيز الأحادي على الذاكرة يعني أن نظل نعيش في الماضي، مهما زوّقناها بشعارات «ذاكرة للغد»، على غرار «بيروت مدينة عريقة للمستقبل». بين الغد والماضي، ثمة الحاضر. ولا مجازفة في القول إن النسيان هو وسيلة من وسائل العيش في الحاضر. في حاضر مفتوح على مستقبل.

في كل الأحوال، الفارق كبير بين قمع الذاكرة والنسيان. لا بد من التمييز بين الاثنين تمييزاً قاطعاً. التلاعب الرسمي بالذاكرة هو ما نود تسميته «قمع الذاكرة». ولقمع الذاكرة آليتان رئيسيتان: قمع السؤال حول السببية: ما أسباب الحرب؟ وهل كان بالإمكان تفاديها؟ وتغريب الحرب بنسبها للغير.

لم يكن هذا القمع للذاكرة بلا مصلحة. فمقولة «حرب الآخرين» عدا أنها تضفي براءة مجرمة على جميع اللبنانيين، المقاتلين منهم وغير المقاتلين، فإنها تعفي خصوصاً الطبقة الحاكمة (الاقتصادية والسياسية) التي لم تبذل أي جهد لمنع النزاعات السياسية والاجتماعية من التحول إلى نزاعات مسلحة بواسطة الإصلاحات والتنازلات. وقمع الذاكرة لا يكتفي بتبرئة الذين خاضوا الحرب وقادوها وحرّضوا عليها من أية مسؤولية أو مساءلة، بل قد كرّسهم حكاماً للبلد فترة بعد الحرب. وقمع الذاكرة يفيد طبقة حاكمة أعادت بناء النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ السياسي ـ الأخلاقي (أي اللاأخلاقي) على مقاس مصالحها تحت شعار «إعادة الإعمار».

في مقابل قمع الذاكرة هذا، يسود الآن في العمل الأهلي نمط يكاد يكون وحيداً من التذكّر ينصبّ على تذكّر أعمال العنف. أحياناً تضفي هذه الجهود على عملية التذكّر وعلى الذاكرة مفعولاً سحرياً يفترضها مولدة لوازع أخلاقي يمنع بذاته تجدد اللجوء إلى السلاح لحل النزاعات. وهذا ما يستدعي الملاحظات الآتية:

أولاً، خلال احتفال جمعيات أهالي المخطوفين هذه السنة، استمعوا إلى مسؤول ميليشياوي سابق يقدم اعتذاره عما ارتكب بحقهم. قبل الأهالي الاعتذار وتمنوا لو أن أمثاله كثر. لا بد من توسيع مفهوم «معرفة الحقيقة» الذي تصر عليه جمعيات أهالي المخطوفين بعناد ريادي يستحق كل إعجاب. لا بد من توسيع المفهوم ليشمل حقا لكل لبناني ولبنانية في معرفة الحقيقة بالمعنى الأوسع: أسباب الحرب ومسارها وكيفية اختتام مراحلها المسلحة.

ثانياً، لا يمكن أن تكون الذاكرة الجمعية حصيلة تجميع مئات الألوف من الذاكرات الفردية عن حروب دامت ١٥ سنة. هذا على افتراض أن عملية التجميع هذه ممكنة أصلاً. هنا ينتقل دور بناء الذاكرة الجمعية من ميدان الذاكرة إلى ميدان التأريخ. وليس المقصود الدعوة إلى إنتاج كتاب موحد لتاريخ لبنان أو لتاريخ حروب فترة ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠، بل المقصود فتح المجال واسعاً أمام تعدد السرديات والتفسيرات والاجتهادات. لا توجد مهمة اسمها تسجيل الحقيقة أو اكتشافها في الجهد التأريخي. لكن ثمة إمكانيات وضرورات لتفسير الأحداث والتحولات الاجتماعية والسياسية بإضاءة تضافر العوامل التي تنتجها.

ثالثاً، إذا كانت الذاكرة واجبا، فالنسيان ضرورة. يجب أن ننسى أعمال العنف: القتل على أشكاله والخطف والتعذيب والاعتقال والاغتصاب وأشكال العنف الرمزي التي عرفتها تلك السنوات الرهيبة. النسيان ضروري ولكن بالطريقة الجدلية إياها التي تربط الذاكرة بالنسيان. ذلك أننا لسنا ننسى إلا ما نعرفه أي ما قد تذكرناه. يجب أن ننسى ولكن بعد أن نضع هذه النسيانات في المكان الذي تستحقه من المسامحة والمحاسبة أو الغفران.

هكذا، لن تغرق الحرب في بحر من النسيان. لكنها في الوقت ذاته لن تغرق في بحر من الذاكرات المنقوصة المجتزأة أو المفترضة أو المخترعة.

Fawwaz.traboulsi@gmail.com